جامعة عبد الرّحمان ميرة – بجاية
كلّية الآداب واللغات
قسم اللّغة والأدب العربي

أ. أوشايت

ملحمتا الإلياذة والأوديسة لهوميروس

L'Iliade et l'Odyssée de Homère

تعريف الملحمة :

اشتقّت كلمة ***Epopée*** **ملحمة** من الأصل الإغريقيّ ***Epos*** التي تعني كلام أو حكاية. تعني كلمة **ملحمة** في معناها الدقيق « القصيدة القصصيّة الطويلة التي تحكي **أعمال البطولة** التي تصدر في العادة عن **بطل رئيسيّ واحد**، والتي كثيرا ما يكون لها **مغزى قوميّ** واضح ». تقدّم الملحمة، إذن، بأسلوب روائيّ موضوع البطولة، وسير الأبطال إنْ في حالة الحرب أو السّلم، بعبارة أخرى هي حكاية شعرية تروي حوادث ذات أهمّية من الدّرجة الأولى، وقعت في الماضي المجيد، فكانت نقاط انعطاف في تاريخ الشّعب الذي أنتجها.

وعليه فإنّ **الشّعر القصصيّ** / **الملحميّ** ***Poésie épique*** مرتبط بتراث الأمم، يروي أمجادها، وما يجري على أيدي أبطالها من بطولات، وما حملته ذاكرة الشّعوب من قصص ترتبط بها عواطفها. تثير قصص البطولة هذه حماسة الشّعوب عندما تستمع إليها، خاصّة إذا كان أسلوب الشّاعر فخما، والوزن مختارا. ينشد الشّعر الملحميّ مباشرة أمام جموع المستمعين، وبطريقة مؤثّرة تزيده جمالا، فيختلط حماس الشّاعر بحماس المستمعين، وقد صوّر **أفلاطون** ***Platon*** هذا التّرابط الانفعاليّ الموجود بين منشد أشعار **هوميروس** ***Rhapsode*** وبين جمهور المستمعين في إحدى محاوراته التي جمعت بين الفيلسوف **سقراط** ***Socrate*** والرّاوية **إيون** ***Ion***. ينحّي هذا الحماس البالغ الذي يثيره الشّعر الملحميّ في النّفوس العقلَ جانبا، ويفتح الباب واسعا أمام الإيمان المطلق بالمعجزات، وبمختلف ألوان العجيب (الأحلام والرّؤى، تدخّل الآلهة في عالم البشر ...)

لقد لازم الطّابع الشّعبيّ الشّعر الملحميّ دائما، فقد وجد منذ البداية شعراء منشدون يتنقّلون ويروون للنّاس تاريخ الوقائع التي تصوّر بطولات أسلافهم، فيتملّكون عواطفهم، ويثيرون حماستهم بما يلقون على مسامعهم من قصص صيغت بأسلوب شعريّ فخم العبارة، قويّ التّأثير.

موضوع الإلياذة والأوديسة :

تنقسم كلا الملحمتين المنظومتين على الوزن السّداسي إلى 24 نشيدا، ويتجاوز مجموع أبياتهما معا 27000 بيت. موضوع **الإلياذة** هو الحرب بين الآخيين *Achéens* (الإغريق) والطرواديين، في حين أنّ موضوع **الأوديسة** هو عودة أحد المحاربين الإغريق إلى وطنه بعد نهاية حرب طروادة.

تُرجع الأسطورة سبب حرب طروادة إلى التّفاحة الذّهبية التي ألقت بها **إيريس** ***Eris*** إلهة الشّقاق وسط المدعوين إلى حفل زفاف الإلهة **ثتيس** ***Thétis*** مع الآدمي **بيليه** ***Pélée***، وقد كتبت عليها **إلى الأجمل**. تقول الأسطورة أنّ ثلاث إلهات سعين للحصول على التّفاحة وهن : **هيرا** ***Héra*** زوجة كبير الآلهة **زوس** ***Zeus***، **أثينا** ***Athéna*** إلهة الحكمة، **وأفروديت** ***Aphrodite*** إلهة الحب والجمال. ولأنّ أيّا من الآلهة الحضور لم يرغب في التدخّل لصالح هذه أو تلك من المتنافسات، كان الرأي بأن يُعرض الأمر على آدمي راعٍ يسمّى **باريس** ***Pâris***، هو في الحقيقة ابن **بريام** ***Priam*** ملك طروادة، وفعلا يحكم **باريس** بين الإلهات المتنافسات، ويختار أن يقدّم التّفاحة الذهبية **لأفروديت** التي وعدته، مكافأةً له، بأجمل نساء الأرض. يرافق **هرمس** ***Hérmes*** رسولُ الآلهة **باريس** إلى **إسبرطة** ***Sparte*** حيث تعيش **هيلينا** ***Hélène*** زوجة الملك **مينيلاس** ***Ménélas***. استغلّ **باريس** غياب الزّوج ليختطف **هيلينا**، وأقفل راجعا بها إلى **طروادة**، فيقرّر الآخيون محاربة الطرواديين لاسترجاع زوجة ملكهم، وقد نجحوا فعلا في ذلك بعد 10 سنين.

تتناول ملحمة **الإلياذة** (نسبة إلى مدينة **إليون** / **طروادة** ***Ilion / Troie***) واقعة واحدة وقصيرة من حرب طروادة، وهي غضبة **آخيل** ***Achille***، الذي أحسّ بالإهانة بعد أن استولى الملك **آغاممنون** ***Agamemnon*** على سبيته **بريزييس** ***Briséis***. قرّر **آخيل**، تبعا لهذا، أن يعتزل الحرب، وينزوي في خيمته، وألاّ يعود إلى ساحة الوغى مرّة أخرى، وهو الذي كان يدرك أنّ مشاركته في الحرب ضرورية حتى ينتصر الإغريق على خصومهم، ولكنّه يعدل عن قراره هذا بعد أن يقتل **هيكتور** ***Hector*** بن ملك طروادة وقائد جيشها، صديقَه **باتروكل** ***Patrocle***، فيقرّر أن ينزل إلى ساحة الحرب لينتقم لموت صاحبه، وفعلا ينجح في ذلك. تنتهي ملحمة **الإلياذة** بالشّعائر الجنائزية التي أقيمت **لهيكتور** بعد أن استطاع والده **بريام** استرجاع جثّته من **آخيل** مقابل فدية كبيرة، أمّا سقوط **طروادة** ودخول الآخيين إليها وانتصارهم، فلا نجد له ذكرا في **الإلياذة**، بل تنقله ملحمة **الأوديسة**.

تحكي **الأوديسة** رحلة عودة **أوديسيوس** ***Odysseus*** أحد أبطال حرب طروادة الإغريق إلى وطنه **إيثاكا** ***Ithaque***، لقد كانت الرّحلة شاقة وطويلة إذ دامت 10 سنوات.

تنقسم الأناشيد 24 التي تتكوّن منها الملحمة إلى ثلاثة أقسام :

- ✓ **التيليماخيا** ***La Télémachie*** وهي الجزء من الملحمة الذي يحكي رحلة بحث **تليماك** ***Télémaque*** عن والده **أوديسيوس**.
- ✓ الإقامة في ضيافة الملك آلكينوس ***Alkinoos***، إذ يروي **أوديسيوس** للملك مغامراته العجيبة الكثيرة.

✓ أخيرا عودة البطل متنكرا إلى الوطن، وقتله الخطّاب الذين كانوا يحومون حول زوجته **بينيلوب** ***Pénélope***

وهكذا تنتهي الأوديسا باسترجاع **أوديسيوس** لعرشه وزوجته وولده.

خصائص الملحمة :

1. **وحدة الموضوع :**

تتناول الملحمة موضوعا واحدا تعالجه على امتداد أبياتها الكثيرة، ذلك أنّ الشاعر يختار منذ البداية نقطة رئيسيّة ومحورية هي مرتكز الأحداث كلّها، وفي العادة يمكن تلخيص هذا الحدث المحوريّ البسيط في عبارة أو اثنتين، تُفتتح بهما الملحمة.

يقول **هوميروس** في مطلع **الإلياذة** : « غني يا ربة الشعر **غضبة آخيل بن بيليوس، وعواقبها**، التي عادت بآلاف الويلات على الآخيين »؛ لقد دامت حرب طروادة عشر سنوات طويلة، وتعدّدت معاركها ووقائعها، وكثرت أحداثها، كما تعدّدت انتصارات وانهزامات الفريقين، ولكنّ **هوميروس** لم يكن يسعى إلى التأريخ لحرب طروادة، وتسجيل وقائعها بدقّة، فهو شاعر مبدع ارتأى أن يختار من أحداث الحرب حادثة واحدة يجعلها مرتكز ملحمته، وهي غضبة البطل الإغريقيّ **آخيل**، وقصّها علينا مع عواقبها الوخيمة. وهكذا فإنّ جميع مشاهد **الإلياذة** وصورها ملتفّة وموحّدة حول هذا الموضوع الرئيسيّ (**غضبة آخيل**)، وحول البطل الرئيسيّ (**آخيل**)، مشكّلة منظومة مترابطة ترابطا وثيقا.

نفس الأمر بالنسبة **للأوديسة** حيث يقول الشاعر : « غنّي يا ربّة الشعر عن **الرجل الرحّالة الذي هام يجوب الآفاق** بعد أن دمّر مدينة طروادة المقدّسة ». تروي هذه الملحمة، إذن، عودة البطل الإغريقيّ **أوديسيوس** إلى وطنه بعد سقوط مدينة طروادة ونهاية الحرب، وهي تصوّر مبلغ حيلته في التغلّب على ما يعترض طريقه من مصاعب ومخاطر، كما تصف مدى ألمه وعذابه، وحنينه إلى أهله بعد فراق دام عشرين عاما، وعزمه القويّ على التغلّب على كلّ العقبات التي تحول دون عودته إلى **إيثاكا**. لقد استمرّت رحلة العودة إلى الوطن عشر سنين، ولكنّ الشاعر لم ينقل لنا منها إلاّ أحداث الأسابيع القليلة الأخيرة.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ اتجاه الشاعر الملحميّ إلى تناول موضوع واحد، لا يمنعه من تناول مجموعة من الأحداث والحكايات الفرعية التي تلتفّ حول الحدث الرئيسيّ للملحمة، علما أنّ تشعبّ حكاياتها، وتنوّع موضوعاتها لا ينفي عنها أبدا الوحدة الموضوعية، وتظلّ رغبة الشاعر في إثراء حدثه الرئيسيّ وإغنائه وتعميقه، السبب وراء انطلاقه نحو الموضوعات فرعية، والحكايات الجانبية، علما أنّ براعة الشاعر الملحميّ تكمن في آن واحد في اختياره للموضوع أو الحدث الرئيسيّ، وفي جعل هذا الكمّ الكبير من الحكايات كلاّ متكاملا، ووحدة متناغمة.

2. المزج بين عالميْ البشر والآلهة :

يظهر هذا المزج بين القوى البشريّة والقوى الخارقة للطبيعة على مستويين :

الأحداث : ذلك أنّ الآلهة في الملاحم تتدخّل باستمرار في عالم البشر ، وحياتهم، وهي تفعل ذلك لتوجّه الأحداث في اتجاه أو في آخر، ومن ثمّ فإنّ الخطّ الرابط بين عالم الآلهة وعالم البشر لا ينقطع أبدا (تنقسم الآلهة إلى قسمين في ملحمة **الإلياذة** قسم يساعد الطرواديّين وآخر يساند الإغريق، وفي ملحمة **الأوديسة** تحمي الإلهة **أثينا** ***Athéna*** **أوديسيوس** وتساعده ...). أمّا طرق تدخل الآلهة في حياة البشر فمختلفة ومتعدّدة منها الرؤى والأحلام والنبوءات.

الشخصيات : ذلك أنّ أبطال الملاحم أنصاف آلهة، ولدوا من زواج آلهة بآدميّين (**آخيل** مثلا هو ابن الآدميّ **بيليه** والإلهة **ثيتيس**).

3. المزج بين التاريخ والأسطورة :

تقدّم الملحمة أحداثا يمكن أن تكون حقيقيّة، فهي تروي عادة مسار أمّة، يقودها في فترة صعبة من تاريخها بطل متفوّق، مؤمن إيمانا عميقا بما يقوم به، ويحاول جاهدا أن يصل بشعبه إلى برّ الأمان والسلم والتوازن والطمأنينة، وعلى هذا يمكن بشكل أو بآخر اعتبار الملحمة قصّة ولادة أمّة (مثلا **إنياذة فرجيل**)، وهي من ثمّ لا تخفي طموحاتها الوطنية والقومية.

وعليه فإنّ حسّ التاريخ يميّز الملحمة، ولكنّها مع ذلك ليست تاريخا، فالتاريخ لا يعالج بالضرورة فعلا واحدا، ولكنّه يعالج فترة زمنيّة كاملة، وهو يقف عند كلّ الأحداث التي وقعت لشخص واحد أو عدّة أشخاص عاشوا في الفترة التي يهتمّ بها، وربما كان بين هذه الأحداث صلات وروابط، وربّما لم يكن، ذلك أنّ التاريخ يتعرّض لحوادث كثيرة ومتتالية، ولكنّ تعاقب هذه الأحداث لا يرجع إلى أنّ بعضها هو نتيجة للبعض الآخر، ولا لأنّها تتجّه كلّها إلى هدف، وإنّما لأنّها تتعلّق بفترة زمنية واحدة، أو شخص واحد، في حين أنّ الملحمة تدور حول موضوع واحد، والشاعر ينتقي من الأحداث المرتبطة بهذا الموضوع ما يشاء حتى يتغنّى بها.

4. الأسلوب :

يتميّز أسلوب الملاحم دائما بالغلوّ *Hyperbole* والتضخيم والمبالغة والتهويل، وهي تستعمل لهذا التشبيهات والمقارنات، والمحسّنات اللفظية، والأوصاف والنعوت (*Epithète de nature* : الألقاب المأخوذة من ميزة تميّز الموصوف؛ في الإلياذة مثلا : هيرا ذات الذراعين البيضاوين، طروادة ذات الطرقات الواسعة) التي تساعد الشاعر على توضيح فكرته وتعميقها.

✓ **الأسلوب الهوميريّ** :

يتميّز أسلوب **هوميروس** بالوصف الكثير، وأوصافه تلتصق بالأذهان التصاقا شديدا، حتى ليبدو لنا أنّنا نعرف الأماكن التي يصفها معرفة أكيدة، وبأنّنا حاضرون في المواقف التي ينقلها (يغرق في **الإلياذة** مثلا في وصف الحرب، وأجمل ما يصف هي الجيوش الإغريقية).

إلى جانب هذا يلجأ **هوميروس** إلى التشبيهات والمقارنات *Comparaison* – وهذا ما يميّز أسلوبه على الإطلاق – وهو يأخذ مادّة تشبيهاته من الطبيعة، ومن الحياة اليومية البسيطة بجوانبها المختلفة، وهو لا يتوانى عن تكرارها مرّات ومرّات. وهكذا ينتقل الشاعر باستمرار من عالم الحرب المرعب والعنيف إلى عوالم أخرى كثيرة هادئة بعيدة عن عالم الحرب (عالم الطبيعة والحيوان مثلا، يلج عالم أطفال صغار يلعبون، أو المزارعين وصانعي الفخار ...)، وعلى امتداد المقطوعات التي يمكن أن تطول لتشمل أكثر من عشرة أبيات، نسافر مع الشاعر إلى هذه العوالم الموازية لعالم الحرب والعنف والموت.

أمّا السبب الذي جعل **هوميروس** يعقد باستمرار هذه التشبيهات والمقارنات فإدراكه لفظاعة الحرب التي كان ينقل مشاهدها (أقرّت الحفريات المختلفة بأنّ حرب طروادة كانت فعلا عنيفة إلى أقصى الدرجات)، ورغبته من ثمّ في التخفيف من حدّة هذه الفظاعة بمشاهد وديعة من حياة البسطاء من الناس، فخلق بهذا خلفية رقيقة لمشاهد الحرب العنيفة، وهذه المشاهد المأخوذة من الطبيعة توحي بأنّ العالم البطوليّ ليس كلّ شيء بالنسبة له، ولكنّه عالم تظهر حقيقته ويدرك في ظلّ هذا العالم البسيط والمتواضع.

ملحمة الإنياذة لفرجيل

L'Enéide de VIRGILE

تقصّ ملحمة **الإنياذة** مغامرات البطل الطرواديّ **إنياس** ***Enée***، والمخاطر التي تعرّض لها في سبيل إنشاء وطن جديد للطرواديّين الذين فقدوا وطنهم بعد سقوط مدينة طروادة بين يدي الإغريق، وقد بدأها **فرجيل** من حيث أنهى **هوميروس الإلياذة**؛ أي من هزيمة طروادة وسقوطها بين يدي الإغريق؛ بشكل أو بآخر فإنّ الملحمة **الهوميرية** تقص نهاية عالم (سقوط طروادة)، في حين تقص الملحمة **الفرجيليّة** بداية وميلاد عالم جديد (تأسيس الإمبراطورية الرومانيّة).

يبلغ عدد أبيات **الإنياذة** 9896 بيتا، موزّعة على 12 كتابا، شرع **فرجيل** في نظمها سنة 30 ق. م، بعد أن انتهى من نظم **الرعويّات** و**الزراعيّات**، وكان إذّاك يبلغ من العمر 40 عاما، وقد أنفق على نظمها ما تبقّى من حياته (11 عاما)، وقد وضع لها مخطّطا نثريّا، محدِّدا ما سيتناوله في كلّ كتاب من كتبها. ولعلّ طريقة النظم هذه هي سبب عدم اكتمال مجموعة من أبيات الملحمة، التي وصلتنا ناقصة، وربّما كانت وراء افتقار بعض الكتب إلى الاتساق في ترتيب الأحداث تاريخيا، فقد اتفق جمهور الدارسين على أنّ **الإنياذة** كما تركها صاحبها لم تكتمل تأليفا وصقلا. وفي الحقيقة كان **فرجيل** ينوي، بعد الانتهاء من نظم الملحمة، أن يخصّص بعض الوقت لتنقيحها ومراجعتها، ولكنّ المنيّة وافته قبل أن يتسنّى له ذلك، فأوصى، عندما أحسّ بدنوّ أجله، بإحراقها، وبأن لا ينشر من أعماله بعد موته إلاّ ما نَقَّحَ. ولحسن الحظ، فإنّ صديقه الإمبراطور **أغسطس** لم ينفذ وصيته هذه، وأمر شاعريْن من أصدقاء **فرجيل** بنشر الملحمة، وقد عمد الشاعران إلى حذف الزوائد من دون إضافة أيّ شيء، ويبدو بأنّ **الإنياذة** لم تحظَ بمراجعة حقيقية – كما يرى كثير من الدارسين – وهو أمر يدلّ عليه النص الموجود بين أيدينا، ولكنّ هذا لا يعني بأنّها قصيدة ناقصة، كلّ ما في الأمر أنّها تحتاج إلى تعديلات بسيطة.

أمّا السبب الذي جعل **فرجيل** يصرّ على عدم نشر ملحمته عندما لم يتمكّن من تنقيحها، فإدراكه بأنّ أعمال الشعراء الرومانيّين لا توضع فقط بين يديْ القرّاء العاديّين الراغبين في الاستمتاع بالأعمال الأدبية فحسب، وإنّما توضع أيضا بين يديْ النقّاد الذين يتفحصونها، ويبدون الرأي فيها، فلم يرغب أن يضع أمام هؤلاء عملا ناقصا غير منقّح.

فرجيل والملحمة الهوميرية :

يذهب كثير من الدارســين إلى جعل **الإنياذة** قســمين اثنين، يقابل كلّ واحد منهما جزءا من الملحمة الهوميروية، ذلك أن **فرجيل** اســتطاع أن يحاكي ببراعة في الكتب السّــتة الأولى من ملحمته **الأوديســة** حيث الرحلة بحثا عن الوطن الموعود، وأن يجعل السّتة الباقية صورة من **الإلياذة** أين تطغى الحرب من أجل تأسيس هذا الوطن.

وهكذا نلاحظ أن قصّة البطل الطّرواديّ **إنياس** في قرطاجة منقولة عن قصة **أوديسيوس** في جزيرة الملك **آلكينوس** بداية بالعاصفة التي أَلْجَأَتِ البطل إلى شواطئ غريبة، ثمّ الإنقاذ، فاستقبال الملك الغريب للبطل، ورواية هذا الأخير – أثناء مأدبة طعام – للمغامرات المختلفة التي عاشها، وبهذا يدفعنا **فرجيل** إلى أن نرى في **إنياس أوديسيوس** آخر، مع اختلاف جذريّ بينهما، ذلك أنّ الأوّل كان يسعى إلى تأسيس وطن جديد لبقايا الطرواديّين الذين فرّوا معه بعد سقوط مدينتهم، في حين أنّ الثاني كان عائدا إلى وطنه حيث زوجته وولده بعد انتصــاره على الطرواديّين، كما يمكن أيضــا أن نقابل بين شــخصــيتيْ **باتروكل** في **الإلياذة** و**بالاس** ***Pallas*** في **الإنياذة**، فموت الأول يطلق العنان لغضــب **آخيل** الذي ينتقم لصديقه بقتل **هكتور**، وموت الثّاني أيضا يطلق العنان لغضب **إنياس** الذي لا يهدأ إلا بعد قتل **تورنوس** ***Turnus***. لقد اســتعار الشّــاعر الرّوماني أيضــا من **هوميروس** فصــولا كاملة، فالاحتفالات الجنائزية التي أقامها **إنياس** لوالده **آنشــيز** ***Anchise*** مأخوذة من الاحتفالات التي أقامها **آخيل** لصــديقه **باتروكل** في **الإلياذة**، كما أنّ زيارة **إنياس** للعالم السّــفليّ شــبيهة بزيارة **أوديســيوس** له ... إلخ. وعلى منوال **هوميروس** في **الإلياذة** لم يهتم الشّــاعر الرّوماني في القســم الثّاني إلاّ بحادثة واحدة امتدّت على نحو عشرين يوما من حوادث الحرب التي دارت رحاها في اللاّتيوم *Latium*، من أجل تأسيس الوطن الجديد، وفي هذا القسم إشارة إلى كيفية تحقيق **إنياس** لمهمّته، التي أصبحت سهلة بمجرّد الإيمان والاقتناع بها (بعد الرحلة إلى العالم السفليّ)، وهو الذي كان قبل هذا يحسد كلّ أولائك الذين لا تثقل كواهلهم مهمّات كمهمّته.

هناك فريق آخر من النقّاد يجعل **الإنياذة** ثلاثة أقســام؛ يضــمّ الأوّل الكتب من الأوّل إلى الرابع، وموضــوعه الأســاســيّ قرطاجة وما حدث فيها، ويضــمّ الثاني الكتب من الخامس حتى الثامن، وفيه حديث عن الاســتعداد لحرب اللاتيوم، في حين يضمّ الثالث الكتب الأخيرة المتبقّية المخصّصة للمعارك الرئيسية في اللاتيوم.

الوحدة العضويّة :

إنّ تقسيم الملحمة بهذا الشكل (سواء إلى قسمين أو إلى ثلاثة) لا يحرمها من **الوحدة العضوية**، وما يدلّ على ذلك أمور كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر أنّ بطل **الإنياذة** واحد، هو **إنياس** الذي يتحوّل من بطل شريد هائم على وجهه يبحث عن وطن جديد، إلى بطل محارب عندما يحطّ الرحال على الأراضي الإيطالية، كما يبدو واضحا بأنّ هناك سلسلة من الأسباب والنتائج تربط بين أقسام الملحمة؛ إذ ينبغي أن يقود الإبحار البطلَ إلى شواطئ لافينيوم، ليكون بذلك الإنزالُ بدايةَ الحروب بين الطرواديّين والسكان المحلّيّين، التي تنتهي بالتوافق بين الطرفين، فتأسيسِ مدينة روما. كذلك فإنّ غضب **جونو** ***Junon*** يلاحق **إنياس** منذ بداية الملحمة، ولا يخمد حتى تنتهي حروب اللاتيوم، وهو ما يضمن **للإنياذة** الوحدة العضوية.

وحدة الموضوع :

يفتتح **فرجيل** ملحمته بقوله : « للسلاح أغنّي، وللرجل الذي كان أوّل من جاء به القدر شريدا من سواحل طروادة إلى إيطاليا وشواطئ لافينيوم؛ يضرب على غير هدى – بقوّة من السماء – في آفاق البرّ والبحر، بسبب غضب جونو الذي لا يعرف الصفح، وقاسى كثيرا في الحرب أيضا، كي يستطيع أن يؤسّس مدينة، ويأتي بآلهته إلى لاتيوم، حيث أتى الجنس اللاتينيّ، وسادة ألبا، وأسوار روما الشاهقة إلى الوجود »، وهي أبيات توحي للوهلة الأولى بأنّ الموضوع الرئيسيّ **للإنياذة** هو البطل **إنياس** ومغامراته وحروبه المختلفة، ولكنّ القصّة التي ترويها الملحمة في الحقيقة ليست قصّة البطل، بقدر ما هي قصّة **روما وعظمة الإمبراطورية الرومانية وأمجادها** من وجهة نظر شاعر ينظر إلى الماضي البعيد المجيد، ويريد أن يربط به الحاضرَ، مع الإشارة إلى أنّ العنوان الذي أطلقه **فرجيل** على ملحمته بادئ الأمر هو **مآثر الشعب الرومانيّ**.

لقد كان **فرجيل** يدعم سياسة **أغسطس** الذي جاء بعد **قيصر** وعهد الجمهورية، الذي عرفت خلاله روما الحروب الأهلية العنيفة، وقد سعى **أغسطس** جاهدا إلى ترميم القيم الرومانية الأساسية، وإلى إعادة بناء المدينة التي أنهكتها الحرب، وقد وفّق إلى حدّ بعيد جدّا في ذلك كلّه. وحتى يتمكّن الشاعر من تمجيد **أغسطس / رومولوس الجديد** (**أغسطس** هو سليل **إنياس** عن طريق نسب العائلة اليولية إلى **إيولوس** ***Iule*** ابن **إنياس**)، كان لابدّ له من الإشارة إلى أسلافه، ومنهم **الطرواديّ إنياس** سليل الآلهة الذي كلّفته الأقدار بتأسيس وطن جديد للطرواديّين، وهو الخطوة الأولى نحو إنشاء مدينة روما، وعلى المدى البعيد إنشاء الإمبراطورية الرومانية المزدهرة.

وعليه، فإنّ فكرة روما العظيمة ترافق ملحمة **الإنياذة** من البداية حتى النهاية، وهذا ما يضمن لها وحدة الموضوع، التي – بدا عند الحديث عن القسميْن المقابليْن للملحمة **الهوميرية** – أنّها غائبة عنها، وإذّاك تغدو قصّة **إنياس** البطل الطرواديّ مجرّد هيكل بنى عليه الشاعر ملحمته، وقد مكّنه من مزج الحقيقة التاريخيّة بالخيال الأسطوريّ، (علما بأنّ لم يسعَ أبدا إلى نظم ملحمة تاريخيّة) ذلك أنّ الشاعر قصد بملحمته هذه إلى ربط أصل الرومان بالآلهة والأبطال العظام، كما قصد إلى ربط الحاضر؛ أي العصر الأغسطي باستقراره وقيمه وسلامه وأمنه، بالماضي الأسطوريّ حيث الأبطال العظام، وبهذا يكون **فرجيل** قد أخذ مادته من مصدرين أساسيين؛ من جهة تاريخ روما المعاصر (العصر الأغسطي خاصّة، وإن كان لا يشير صراحة إلى **أغسطس** أو إلى التاريخ الرومانيّ، إلا أنّ كلّ هذا حاضر في الخلفية)، ومن أخرى الروايات المتعلّقة بنشأة مدينة روما (**ريموس وروملوس**)، بالإضافة إلى الأساطير التي تروي كيف انحدر الرومان من بقايا الطرواديّين (**إنياس** آخر طرواديّ وأوّل الرومانيّ، ومن نسله ينحدر الشعب الرومانيّ)، وتلك التي تروي أيضا الماضي السحيق للاتيوم.

كذلك لقد سعى **فرجيل** – وإن لم يكن ذلك بطريقة مباشرة – إلى تمجيد كثير من عادات وطقوس الرومان بربطها بعادات وطقوس عصر الأبطال. لقد مثّل البطل **إنياس** ورفاقه خير تمثيل الفضائل والقيم الرومانية، التي قامت عليها الإمبراطورية، والتي سعى **أغسطس** إلى استعادتها، وتكريسها من جديد، وفي الحقيقة فإنّ **إنياس**، باعتباره حاكم شعبه، وقائده في الحروب، وواضع تشريعاته في أوقات السلم، وكاهنه أيضا فيما يتعلّق بالأمور الدينية، يمثّل بوضوح شخصية **أغسطس** مؤسّس الإمبراطورية.

أمّا الجسور التي استعان بها **فرجيل** حتى يذكر تاريخ روما (الموجود في الخلفية)، ويربط الحاضر بالماضي فهي ثلاثة :

- ✓ **نبوءة جوبيتر** : في إشارة إلى أنّ الإمبراطورية الرومانية تأسّست بقرار إلهيّ، وبأمر من الأقدار (قرار اتخذه **جوبيتر** كبير الآلهة)، يقول كبير الآلهة مطمئنا ابنته **فينوس** على ولدها **إنياس** :

إنّي لا أضع حدودا لممتلكاتهم أو حدّا زمنيّا لسلطانهم

فقد منحتهم ملكا لا نهاية له

ونحن أنفسنا سنرفع إلى النجوم أحفادك في المستقبل وسنمنح مدينتهم سلطانا

تذكّر أيّها الرومانيّ أنّك تحكم الشعوب بنفوذك

ستكون لك هذه الفنون التي تسنّ بها قانون السلام

وتعفو عن المنهزمين، وتحارب المتعجرفين

الرحلة إلى العالم السفليّ : عندما ينزل **إنياس** إلى العالم السفليّ تقوده العرافة سيبيل ***Sybelle*** يقابل والدَه **أنخيس** هناك، ويرى تدافع حشد كبير من الأرواح على ضفّتيْ نهر، وعندما يسأل والده عن سرّ ما رآه، يجيبه : « هذه أرواح أولائك الذين ما زال عليهم أن يعيشوا في الأبدان الفانية، وهم مجبرون على الشرب من ماء النسيان » قبل أن يعودوا في أجساد جديدة إلى عالم البشر، وقد راح **أنخيس** يروي استباقا لابنه تاريخ روما، ويريه عظماء كثيرين من نسله (منهم **أغسطس** طبعا) سيحكمون العالم إذا ما استطاع أن ينفّذ مهمّته (إنشاء الوطن الجديد)، كما أراه أمورا كثيرة قادمة، وبالإضافة إلى الحروب التي سيخوضها، وأعلمه كيف يتجنّب الشرور. وقد بثّ حديث الوالد، وما أراه إيّاه، في **إنياس** الرغبة في تنفيذ المهمّة التي كلّف بها، بعد أن كان مقبلا على تنفيذها من دون رغبة، يقول : **تنتظرني سلسلة أكبر من الأحداث، وسأنهض بعمل أكثر شرفا.**

✓ **دِرْعُ إنياس** : وهي الدرع التي طلبتها **فينوس** لابنها من إله الحدادة **فولكان** ***Vulcan*** (تماما كما طلبت **ثيتيس** والدة **آخيل** واحدة من إله الحدادة **هيفايستوس**) فزيّنها بلوحات جميلة من تاريخ روما وانتصاراتها، ولكنّ مركزها ومحورها هو معركة أكسيوم *Actium* (سنة 31 ق. م) التي ضمنت السيادة للإمبراطورية الرومانية (نهاية الحرب الأهلية وإرساء أسس الإمبراطورية)، وقد جمعت بين الشرق (مصر الفرعونيّة) ممثّلا في **كليوباترا وآنطونيوس** ***Cléopâtre et Marc-Antoine*** والغرب (الإمبراطورية الرومانيّة) ممثّلا في **أغسطس** ، وكان النصر فيها حليف هذا الأخير طبعا (انتصار الغرب على الشرق).

هذا المستقبل المشرق، الذي نجده في هذه الإشارات الثلاث مرهون بإتمام البطلِ لمهمّته؛ فوجود الإمبراطورية الرومانية وعظمتها، وميلاد عظماء الغد مرهون بإنشاء وطن جديد للطرواديّين، ومن هنا يبدو واضحا كيف أنّ **إنياس** ليس في الحقيقة إلاّ وسيلة في يد الأقدار لإنشاء الإمبراطورية الرومانية، ولم يخلق أصلا إلا لتحقيق هذا الهدف.

قصّة ديدو *Didon* :

ديدو هي ملكة فينيقيّة، غادرت موطنها صيدا بعد أن انتقمت من أخيها لمقتل زوجها، وأنشأت لأهلها وعشيرتها وطنا جديدا هو مملكة قرطاجة. عندما فقدت **ديدو** زوجها آلات على نفسها أن لا تحبّ وترتبط بأي شخص بعده، ولكنّها تقع في حبّ **إنياس** الذي يبادلها مشاعرها، ويظلّ في ضيافتها مدّة من الزمن حتى يرسل **جوبيتر** رسوله **ميركور** ***Mercure*** ليذكّره بمهمّته، وبضرورة رحيله عن قرطاجة، فيستجيب للأمر، وتنهار الملكة بعد أن يرفض الاستماع إليها، فتنتحر.

إنّها قصّة حبّ، وقد نجح **فرجيل** بحقّ في أن يزرع هموم الفرد وسمات الشعر الفرديّ في ملحمته القوميّة : الملكة التي أحبّت الغريب الطرواديّ حبّا جارفا دمّرها، وكانت مستعدّة من أجل استبقائه للتضحية بكلّ ما حقّقته في قرطاجة، ولكنّه رحل من دون أن يلتفت إلى توسّلاتها، فلعنته ولعنت الطرواديّين، ودعت القرطاجيّين إلى كرههم.

موقف **فرجيل** من هذه العلاقة بين **إنياس وديدو** لا يختلف عن موقف الرومان في ذلك الوقت من هذا النوع من العلاقات؛ إنّها امرأة جميلة أخطأت التصرّف والتقدير، والطريقة الوحيدة لإصلاح الأمر هو الموت. لقد صنعت **ديدو** خطأها وهفوتها بنفسها، وعزاؤها الوحيد هو الموت، ومن هنا كان انتحارها بعد رحيل **إنياس**.

ولكنّ قصّة **ديدو** وحبّها **لإنياس**، ثمّ انتحارها ليست فقط قصّة حبّ، بل هي أيضا قصّة شخص أراد أن يقف في وجه الأقدار، التي أرادت أن يكون **إنياس** آخر طرواديّ وأوّل رومانيّ، وأن يضع بذلك اللبنة الأولى لإنشاء الإمبراطورية الرومانية. لقد نسيت **ديدو** المهمّة التي كلّف بها **إنياس** أو تناستها، وراحت تحاول استبقاءه إلى جانبها متوسّلة تارة، ومهدّدة أخرى، وبهذا تكون قد أرادت الوقوف في وجه القدر، فدفعت حياتها ثمنا لمحاولتها هذه .. ديدو إذن هي الأضحية التي قدّمت على مذبح الإمبراطورية الرومانية (**تورنوس** أيضا أراد الوقوف في وجه الأقدار فقتله **إنياس**، وقد أنهى موته حروب اللاتيوم).

وعلى هذا الأساس تقدّم قصّة **إنياس وديدو** مجموعة من الأمور :

- ✓ انسحاق الفرد، وتضحيته بسعادته الشخصية في سبيل الصالح العام ومستلزمات الواجب الوطنيّ، ويظهر هذا في تصرّف **إنياس** إذ غادر قرطاجة عندما أمره كبير الآلهة بذلك. وهنا يبدو واضحا كيف أنّ شخصية **إنياس** هنا نقيضة شخصية **ديدو** التي ضحّت بكلّ ما حقّقته، في سبيل حبّها، وحرصت على سعادتها الشخصية ومصلحتها الفردية، وقد دمّرها كلّ هذا في نهاية الأمر. ينبغي الانتباه هنا إلى أنّ هناك قاسما مشتركا يجمع بين الاثنين؛ فكلاهما غادر وطنه مع أهله بحثا عن وطن جديد، وقد نجحت **ديدو** في تحقيق كلّ ما كان **إنياس** يسعى إليه : الوطن والاستقرار والأمان للنازحين الذين فقدوا وطنهم.

✓ إشــارة ضــمنية إلى انهزام قرطاجة أمام روما، وربّما إشــارة ضــمنية أخرى إلى الخطر الذي شــكّلته **كليوباترا** على الإمبراطورية الرومانية. إنّ **فرجيل** هنا يؤكّد دائما على فكرة روما سيّدة العالم التي لا يقف في وجهها أيّ شيء، روما التي سادت رغم الخطر القرطاجنيّ والفرعونيّ.